

# التسامح الديني مع أهل الذمة بالأندلس

## الجزء الأول: التسامح الديني مع المسيحيين

بقلم: الدكتورة : سامية جباري

كلية العلوم الاسلامية جامعة الجزائر

تمهيد:

اسم أهل الكتاب الذي يرد بكثرة في نوازل الفترة. وقد تعلموا العربية واستعملوها إلى جانب لغتهم الأصلية فسموا بالمستعربين، ومن الواضح أن "تأثير النصارى واليهود كان قويا في المجتمع الأندلسي طيلة بقاء الإسلام في إسبانيا"

على أن المجتمع الأندلسي لم يعرف التعصب الديني من جانب المسلمين، فقد تركوا لأهل الكتاب من نصارى ويهود حرية العقيدة والتعبّد، "وظل العهد الذي أخذه عبد العزيز بن موسى بن نصير على نفسه قبلهم من حرية العبادة والحفاظ على معابدهم قائما طوال عصور المسلمين في الأندلس إلا في حالات قليلة شاذة".

بل إنهم احتلوا مراتب سامية في الدولة

اتسمت علاقة المسلمين بسكان الأندلس الأصليين الإسبان اليهود والمسيحيين على السواء بالتسامح الديني والعقائدي وحاولوا معاملة أولئك السكان بنفس المعاملة التي كان يلاقيها العربي الفاتح، فلا أثر ولا تفضيل ولا تمايز ولا مفاضلة، بل مساواة في الحقوق والواجبات، وأخوة في السراء والضراء، و"معاملة بالحسنى وعفو عن الزلات، وإغضاء عن السيئات، ورفق في المعاملة، وصدق وإخلاص في العلاقات"<sup>(1)</sup>.

وقد عرفت هذه الفئة في الأندلس "باسم الأقليات"، واختص النصارى "باسم عجم الأندلس". كما أطلق عليهم

الحياة العربية وساهموا في بناء الحضارة الجديدة".

وحتى تتضح لنا مظاهر التسامح الإسلامي مع أهل الذمة لنا أن نفرّد لهؤلاء دراسة خاصة نستجلي من خلالها أهميتهم داخل المجتمع والدور المنوط بهم وتحديد وضعيتهم خلال فترتي الطوائف والمرابطين كنموذج لذلك.

#### أولاً: التسامح الديني مع المسيحيين:

إن أول ما يلفت الانتباه عند محاولتنا تتبع المصطلحات التي اندرج خلف معانيها النصارى نجدها كثيرة ومتعددة، حتى إنه ليحدث لنا تشابك في بعض المداولات وخط في مفاهيمها. فقد أعلنت المصادر المختلفة عن مجموعة من التسميات التي لحقت بالنصارى عددها (سيمونت Simonet) في كتابه المستعمرين، ثم حصرها بوتشيش في كتابه مباحث التاريخ الاجتماعي وعدّها .

فجدهم تارة تحت اسم "الروم" سواء أقاموا في بلادهم أو "دخلوا دار الإسلام محاربين أو تجاراً عابرين أو عبيداً مجلوبين أو عسكرياً في جيوش المسلمين". وأحياناً لفظ "النصارى أو النصارى المعاهدون" أو

وشاركوا بفعالية تامة في الحياة العامة فكان منهم الوزراء، والشعراء، والأطباء، والمهندسون. كما كان من نسائهم حظيات وزوجات وأمّهات أولاد، ومن رجالهم عبيد في حاشية القصر أو جنود مرتزقة في الجيش.

على أن الكثيرين منهم بادروا باعتناق الإسلام واجدين فيه خلاصهم، فغدت الغالبية الأندلسية على دين الإسلام كما قرر ذلك المستشرقون، وبقي جانب آخر من المسيحيين على دينهم ورضوا بدفع الجزية، وتعايش الجميع في غالب الأحيان بسماحة. "فتداخلت المساجد والكنائس وتعاقت نداءات المآذن وأصوات النواقيس" يصور ذلك ابن حزم في شعره بقوله:

أتيتني وهلال الجو مطلع

قبيل قرع النصارى للنواقيس.

والحقيقة أن لا شعب مغلوب حظي بما حظي به الشعب الإسباني إبان الحكم العربي من تطبيق لمعاهدات المهادنة، و استفادة من قوانين الإسلام التي أعطت للذميين حقوقهم كاملة في العيش الكريم، و نتيجة لذلك " اقتحم الإسبان

والمرابطين؟ هل شكلت هذه الأقلية المسيحية خطراً على الدولة أم كانت عوناً وسنداً لحكامها؟ ثم كيف عاملها هؤلاء الحكام، بالجفاء والخشونة أم باللين والرفق؟ وما موقف الرعية من هؤلاء جميعاً؟

لقد كان وجود النصارى بالدولة الأندلسية في تزايد مستمر مع أهل البلاد أولاً ثم ألزموا بعد الفتح بالتعايش مع المسلمين والخضوع لأوامر الدولة الجديدة المترامية الأطراف في الغرب الإسلامي، ثم إن الدولة استوعبت جموعهم من مرافق متعددة أهمها:

أ - جلبهم كمرتزقة في الجيوش الإسلامية منذ خلافة بني أمية في قرطبة ثم " سار ملوك الطوائف على نهجهم وخاصة بنو هود " حيث أخذت جماعات من المسيحيين تلتف حول بلاط ملوك الطوائف طلباً للمكانة المتميزة ولا اعتبارات تجارية واقتصادية، وينطبق هذا بالخصوص على ملوك طليطلة، وبطليوس، وإشبيلية، وسرقسطة، ودانية، وبلنسية، وطرطوشة، كما عمل ملوك الطوائف بدورهم على " جلب أعداد من مسيحيي الممالك الشمالية المسيحية الذين قدموا بغرض العمل

المعاهدين " التي شملت النصارى واليهود على حد سواء، كما أطلق على "نصارى الأندلس المحاربين لفظ عجم الأندلس" أما الذين خضعوا " لأحكام الذمة الروم البلديين أو الروم المعاهدة أما ابن الأثير فقد سماهم "الممالك الإفرنج والروم" بينما اكتفى ابن خلكان بذكر " لفظ ممالك"، وابن عذري " باسم العلوج "وأضاف لنا الأستاذ ميكائيل ذي إيبازا "أسماء لصقت بهؤلاء المسيحيين وحددها بأنها ذات دلالات سلبية جداً أصولها دينية وسياسية كانت تطلق على مسيحيين أفراد من الممالك الإسبانية الشمالية مثل " العدو، عدو الله، الطاغى، المتكبر، المستبد، الثائر، الكافر، المشرك".

أما عن أماكن تواجدهم في الأندلس فلاهل الذمة حضور كثير في سائر المدن الأندلسية فمعظمهم استوطنوا "غرناطة، وإشبيلية، وبلنسية، وإلبيرية، وبطليوس، وطركونة، ومالقة وغيرها كما لوحظ انتشارهم الواسع في الأرياف"

ومهما كانت التسميات واختلفت فإنّ التساؤل الذي يجدر بنا الإجابة عنه: ما وضعيتهم في ظل عصر الطوائف

رواجهم في الدولة الأندلسية لا سيما بعد غزوة شنترين كما ذكر المراكشي.

ويدخل في جملة هؤلاء النساء السبايا والجواري اللواتي "مثلن عنصرا مهما في حياة الأمراء والملوك، فكان منهن إماء خدمة ومتعة" ولم يكن ليستغني عنهن في مجالس اللهو والشراب والمجون فكثير عددن كحظيات أو أمهات أولاد حيث يذكر صاحب الحلل الموشية "أن أم علي بن يوسف كانت رومية" وازداد عددن وانتشر امتلاكهن حتى أصبح التهادي بهن أمرا مألوفاً لاسيما في عصر الطوائف.

#### الحياة العامة:

إن روح التسامح التي دخل بها الفاتحون الأولون الأندلس ورغبتهم في نشر التعاليم الإسلامية ببسط روح المحبة والأخوة والتعايش بين أفراد المجتمع جعلتهم يعززون على فتح حوار حضاري بين مختلف الأديان وخلق جو من التآلف والانسجام، "فبادروا بعقد معاهدات سلمية تحفظ لهؤلاء حرية المعتقد وحماية الممتلكات". وما قبول المسيحيين لتلك العقود إلا إقرار منهم على قوة الإسلام وسلطته فممكنهم ذلك "من ممارسة

بالممالك الإسلامية" ثم اقتفى المرابطون أثرهم، فاشترى يوسف بن تاشفين "عددا من الروم بلغ عددهم نحو مائتين وأربعين" فجعلهم نواة لجيشه النظامي، ولم يكن "حرسه خاليا من هؤلاء فقد ضم مئات من الصقالبة النصارى بوصفهم يخوضون القتال ويعرفون كيف يقاومون إخوانهم الإسبان" وقد سار على نهجه علي بن يوسف الذي استكثر منهم وتبعه ابنه تاشفين "الذي صحب معه من الممالك النصرانية زهاء أربعة آلاف مسيحي".

ومنذئذ تكاثر عددهم في الجيش المرابطي، "واعتمدوا عليه باعتباره جهازاً عسكرياً قوياً قادراً على إنجاز المشروعات التوسعية".

ب - جلبهم كأسرى، فقد ساهمت الحروب في إثراء الدولة بالعناصر المسيحية لاسيما في العصر المرابطي من خلال أسرها، فقد أفادت المصادر أن الزلاقة وفرت عددا كبيرا من "الأسرى المسيحيين الذين بلغ عددهم نحو عشرين ألفاً"، ناهيك عن المعارك الأخرى التي تلتها حيث كان عددهم في تزايد مستمر وأصبح بيعهم في الأسواق بأثمان زهيدة دليلاً كافياً على

المسجد والكنيسة".

أما على صعيد الحياة اليومية فإنهم "لم يمنعوا من تناول الخمر وأكل لحم الخنزير ولم تفرض عليهم قيود معينة في لباسهم" بينما يؤكد حسين مؤنس في كتابه عالم الإسلام أنهم "تميّزوا في فترة معينة بالزناز" الذي لم يكن فيه من التشدد ما يلزمهم به، وحتى في الأوقات التي ألزموا بها بذلك فإن جمهور المسلمين لم يروا غرابة في أن يكون الإنسان مسيحياً".

وقد تغنى بالزناز شعراء الفترة من أمثال ابن الحداد الذي يؤكد أنه ما زاد محبوبته إلا جمالا ورشاقة يقول:

وبين المسيحيات لي سامريّة

بعيد على الصب الحنفي أن تدنو

مثلثة قد وجد الله حسنّها

فتني في قلبي بها الوجد والحزن

وطي الخمار الجون حسن

كأنها تجمع فيه البدر والليل والدجن

وفي مقعد الزناز عقد صبايتي

فمن تحته دعص ومن فوقه غصن

وفي ذلك الوادي رشا أضلعي

له كناس قمري فؤادي له وكن

شعائرهم الدينية، وإدارة شؤونهم الخاصة حسب قوانينهم والاحتفاظ بسلطتهم وهويتهم الثقافية".

وهكذا أصبح من المألوف اختلاط هؤلاء في الأزقة والأسواق وفي المنتديات والمجالس، وفي القصور والمنايا، فكان التعايش وبرزت معالمه في اندماجهم في المجتمع الإسلامي ويبدو ذلك جليا في إقامتهم بالحواضر الأندلسية الرئيسية التي أشرنا إليها سابقا.

وهذا الاندماج جعلهم في تواصل دائم مع الآخرين رغم "ما تثبته المصادر من دأبهم على سكن أحياء خاصة بهم".

وهذا ليس من باب التحقير من شأنهم، بل لضرورة تفرضها عاداتهم وتقاليدهم، فقد توفرت لهم في هذه الأحياء كل متطلباتهم إذ بها الخدمات، والأسواق تباع فيها الخمر ولحم الخنزير.

والملاحظ أن تميزهم في أحياء لم يمنعهم من مخالطة السكان ولنا أن "تخيل المشهد في كل مدينة من مدن الأندلس عبر دروبها المركزية الضيقة إذ نرى فيها احتشاد الجموع من كل جنس ولون ولسان وهي تروح وتغدو إلى السوق والخدمات أو إلى

أما في ميدان المعاملات التجارية فلم تكن هناك مواقع حيث تعاملوا مع المسلمين بيعا وشراء .

وتعد الأمثال الشعبية أرقى درجات المصادقية في التعبير عما كان "يسود من معاملات تجارية بين السلمين والنصارى واليهود داخل المجتمع الأندلسي" منها من "فتح حانوت للتجارة يبيع من يهود ونصارى".

أضف إلى ذلك أنهم كانوا "ملاكا صغارا بعد أن منحتهم القوانين الإسلامية الحق في تملك الأرض والتصرف بها كما شاءوا" بل تعدوا ذلك بأن سمحت لهم الدولة الإسلامية بالأندلس أن "يتمتعوا بقدر من الاستقلال في مناطق الثغور"، كما تمتعوا بالمساواة إلى جانب المسلمين حيث نصرروا في مظالمهم وأنصفوا في شكواهم ولنا في علي بن يوسف مثل واضح على احترام المرابطين لحقوق النصارى الاجتماعية إذ يذكر ابن عذاري "أن مجموعة من مسيحيي غرناطة ذهبت إلى بلاط علي بن يوسف لتقديم شكوى حول العسف والجور الذي تعرضت له من قبل عامل المدينة عمر بن يناله. فلما ثبت للأمر حجتهم أمر بسجنه وأنصفهم من ظلاماتهم".

كما أنهم لم يمنعوا من التزين بأزياء المسلمين بل أحيانا لم يعد يفرق بينهم، حينها تعالت أصوات الفقهاء بضرورة تمييزهم عن المسلمين "كالشكلة في حق الرجال والجلجل في حق النساء" وكان التأثير متبادلا، فالمسلمون بدورهم قلدوا النصارى "وظهرت ملامح التأثير الإفرنجي في الزي الأندلسي بوضوح" لاسيما في "الملابس الحريرية المطرزة والقلائس" وهذا التقليد تجاوز الرعية إلى الملوك والأمراء فقد أكد لنا المقري "أن أمراء الأندلس وأعيانها غالبا ما تزينوا باللباس الإفرنجي" وذكر بالخصوص ابن مردنيش الذي "مال إلى اتخاذ زي الروم".

وما انتشار مصطلح (فشطان) في عامة الأندلس والذي كان يعني "في العصر المرابطي ثياب الروم" لدليل واضح على التمازج الحضاري بين المسلمين والمستعربين. ومن مظاهر تأثر المسلمين هو اقتباسهم من أهل البلاد بعض أسمائهم كالذي "عرف به أبو جعفر بن عبد الله الذي كان يدعى بابن شانجة"، كما "أضافوا إلى بعض أسمائه المقطع الإسباني الواو والنون" للدلالة على التكبير مثل عبدون، خلدون، حفصون...

فهنالك أخلصت النفوس وأكدت  
عقد العهود وشدّت الأنصار  
وتواصل البعداء منك بطاعة  
وصلت بها الأرحام والأصهار  
قعقدت في عنق الضلال موثقاً  
دانت بها الرهبان والأخبار  
وكأنما كانت عقود ثنائم  
سكنت بها الأوحال والأذعار  
أحييت منها ملك رذمير وقد  
مشت الدهور عليه والأعصار

ومثال آخر لعلاقات ملوك الطوائف  
بالنصارى هو مجاهد العامري الذي قضى  
سنين طوالاً في علاقات ودّ مع كونت  
برشلونة ومع فردلند ملك قشتالة".

بينما تميز حكم ابنه إقبال الدولة  
بالعلاقات الحسنة مع ملوك النصارى  
والتسامح المطلق معهم، حتى وصل به  
الأمر إلى أن وضع "كنائس مملكته في دانيا  
والجزائر تحت رعاية أسقفية برشلونة".  
وفي حين "تولى المعتضد بن عباد رعاية  
ششدن الذي نال ثقته وإعجابه فولاه  
المكانة الرفيعة".

ومن الملوك من كانت له يد في إحلال  
السلام بين الخصوم كالأمير محمد بن

وصور الاحترام تمثلت أيضاً في  
تحصين "مقابر للذميين تماشياً مع عاداتهم  
وتقاليدهم في دفن موتاهم". كما ارتبط  
المسلمون بعلاقات متعددة مع النصارى،  
تتسم بالمودّة فدخلوا معهم في صداقات  
ومصاهرات وخالطوهم وشاركوهم  
أعيادهم ومناسباتهم الاجتماعية  
وكانوا "يقصدون كنائسهم ودياراتهم".

### علاقاتهم بالملوك:

حاول ملوك الطوائف كسب مودة  
النصارى "واعتمدوا عليهم في كثير من  
الأعمال خصوصاً في بلاطهم فصارت  
لهم مكانة". ومن أبرز الصداقات  
التي ذكرتها المصادر المتعلقة بمنذر بن  
يحيى النحبي الذي كان "كثير التودد  
إلى ملوك النصارى وقد ربطته بهم  
علاقات ود وصداقة وثيقة" وصلت  
به إلى "عقد مصاهرة بين شاذجة ملك  
نبرة، ورامون بويل ملك برشلونة في  
حفل بهيج حضره الفقهاء والقساوسة  
وأعيان الملتين".

وبهذه المناسبة نظم ابن دراج قصيدته  
المشهورة مباركاً سياسة ممدوحه وتهنئته  
على إحلال السلام والوئام جاء فيها:

اللاهني من الحياة الأندلسية، وإنما يقدمون لنا معلومات قيمة عن "حياة هؤلاء المستعربين وعن لباسهم وأزيائهم وعن الحرية التي كانوا يتمتعون بها في قيامهم بشعائهم الدينية".

فقد أورد لنا ابن خافان في المطمح صورة نقلها ابن شهيد عن تلك الأجواء: "أن أبا عامر بن شهيد قد بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس وعرشت بسرور واستئناس، وقرع النواقيس بهيج سمعه وبرق الحميا يسرج والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحا بالزنانير أبدع توشيح، قد هجروا الأفراح واطرحوا النعم كل اطراح.

لا يعمدون إلى ماء بأنية

إلا اغترافا من الغدران بالراح وأقام بينهم يرشف حميا كأنما يرشف من شقة لميا وهي تنقح له بأطيب عرق كلما رشف أعذب رشف ثم ارتحل بعدما ارتحل فقال:

ولرب حان قد شمت بديره

خمر الصبا مزجت بصرف عصيره  
في فتية جعلوا السرور شعارهم  
متصاغرين تخشعا لكبيره

سعد بن مردنيش الذي عقد مع الممالك النصرانية" المعاهدات وصالح ملك قشتالة "الفونسو السابع" على "ريمون برنجير الرابع" صاحب برشلونة على أن يدفع لهما في السنة خمسين ألف دينار حشمية". وعد علي بن يوسف بن تاشفين "صديق المسيحيين".

### علاقاتهم بالمسلمين:

ومن مظاهر هذا التمازج بين الملتين ما نوهت به كثيرا كتب الأدب لتعطي لنا صورة حية تجسدت في التألف بين الجنسين حيث نشأت علاقات حب بين المسلمين والنصرانيات ولنا في ذلك قصص أروعها ما جادت به قريحة الشاعر ابن الحداد من شعراء القرن الخامس هجري، وهو يتغزل بنويرة النصرانية:

غساک يحق عيساك

مريحة قلبي الشاكي  
فإن الحسن قد ولأ

ك إحيائي وإهلاكي  
وأولعني بصلبان

ورهبان ونساک

وعندما يحدثنا الشعراء عن هذه العلاقات لا يكتفون بتصوير الجانب

ويتربّحها الجميع من مسلمين ونصارى،  
ويحرصون على الاحتفال بها" وأبرز هذه  
الأعياد هي:

"عيد العصرة أو المهرجان الذي كان  
يحتفل به بعد مرور خمسين يوما على  
عيد الفصح"، وهي مناسبة تمثل لدى  
المسيحيين ذكرى "الروح القدس على  
حواريي المسيح الإثني عشر"، وفيه قال  
ابن مالك بن أبي عبدة:

رأى المهرجان قد استبشرا  
غداة بكى المزن واستعبرا  
وسريلت الأرض أفواقها  
وجللت السندس الأخضر  
وهزّ الرياح صنايرها  
فضوعت المسك والعنبرا  
تهادى به الناس الطافهم  
وسام المقل به المكثرا

وامتزع الشعر بالأمثال الشعبية التي  
صورت هذه الاحتفالات كقولهم:  
الكبش المصوف ما يكفر العصرة .

ويأتي شاعر الزجل ابن قزمان ليعطي  
لنا أوضح صور التعايش من خلال أشعاره  
"ملفتا الأنظار إلى مباحج الاحتفال  
وأشكاله".

والقس مما شاء طول مقامنا  
يدعو سعودا حولنا بزبوره  
يهدي لنا بالراح كل مصفر  
كالخشف خفره التماح خفيه  
يتناول الظرفاء فيه وشربهم  
لسلافه والكل من خنزيره  
وقد بلغ التسامح إلى حدّ صار فيه  
المسلمون " يزورون كنائس النصارى  
ويزور النصارى قبور المسلمين لنيل  
البركة". يقول ابن خفاجة متشوقا إلى جو  
الكنيسة:

فيا لشحا صدر من الصبر فارغ  
ويالقدى طرف من الدمع ملآن  
ونفس إلى جو الكنيسة صبّه  
وقلب إلى أفق الجزيرة حنان  
تعوضت من واهاباه ومن هوى  
يهون ومن إخوان صدق بخوان

وكان لهذا التمازج أثره البالغ  
في انصهار العادات والتقاليد بعضها  
ببعض فظهرت "مشاركة الأندلسيين  
للمسيحيين في أعيادهم واحتفالاتهم  
الدينية التي أفرزتها قرون عديدة من  
التعايش" 64، حتى أضحت مألوفة في  
المجتمع الأندلسي "تتعطل فيها الأعمال،

عيد "يناير" الذي يحتفل به في النصف الأول من هذا الشهر يقول ابن قزمان عنه:  
الـحـلـون يعـحـن  
والـغـزلان تباع  
يفرح للـنـيـر  
من ماع قطاع  
وفيه بالله

للعين الشراع  
" ليلة العجوز وهي ليلة آخر السنة  
الميلادية وعيد خمسة أبريل وهو مناسبة  
دينية تعرف عند المسيحيين بالجمعة العظيمة  
التي ترمز إلى تاريخ صلب المسيح".

وتجدر بنا الإشارة إلى كون المشاركة  
في هذه الاحتفالات لم تكن لتعجب  
بعض الفقهاء حيث وجدت رفضا صارما  
ظهرت معالمه في رسائل الحسبة لاسيما  
لابن عبدون الذي أنكر بشدة مصاحبة  
المسلمات لصديقاتهن النصرانيات إلى  
الكنيسة: "تمنع النساء المسلمات من  
دخول الكنائس المشنوعة فإن القسيسين  
فسقة زناة لوطة." ويؤكد هذه الظاهرة  
ابن حداد في شعره:  
وكل فمن مظهر للتقى  
بأي إنصات وإخبارات

وعينه تسرح في عينهم  
كالدُّب يبغى فرس نعجات  
لكنها كانت صرخة في واد، ونفخة في  
رماد، فقد ضرب هؤلاء بهذه الآراء عرض  
الحائط، واستمرت علاقات الود، والحب،  
والتزواج بين الجنسين من الملتين.

### الزواج والمصاهرة:

وثمة ظاهرة أخرى تدل على اختفاء  
ملامح الصراع العنصري أو الديني من  
المجتمع الأندلسي، فقد تمكنت الروح  
الإسلامية الحقيقية أن "توحد بين الناس  
دون النظر إلى أعراقهم أو معتقداتهم" ألا  
وهي ظاهرة الزواج والمصاهرة التي  
عرفت من الفتح الإسلامي إذ كان  
"معظمهم جنودا لم تصحبهم زوجات  
ولا بنات فغدا الزواج بينهم أمرا مألوفا"  
. ولعل أهم المصاهرات التي تمت بين  
المسلمين ونصارى الشمال " هي تلك  
التي ربطت الأسرة الأموية الحاكمة في  
قرطبة بالأسرة النفارية"، ثم أولع حكام  
الطوائف بالإسبانيات فاتخذوا منهن  
الزوجات والحظيات، فزوجة مجاهد  
العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية  
نصرانية وتدعى "جود" أنجبت له "خمس

أي "زعيم نصارى الذمة أو زعيم عجمة الذمة" وكان أول من شغل هذا المنصب بعد الفتح "أرطباس Artabas أثناء ملك القوط غيطشة".

ويتولى القومس منصبه بالانتخاب تمثلاً لجانب من جوانب العدالة وتنتخب إلى جانبه جماعة من القومسات المثلة لنواح مختلفة إذ كل ناحية يديرها قومس صغير كان يسمى "85 Censor" يقول ابن الخطيب: "وكان يرأسهم أشياخ من أهل دينهم أولو حنكة ودهاء ومدارة ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم". وقومس الحقبة المرابطية الذي ورد ذكره هو "القلاس".

إلى جانب هؤلاء نجد وظائف أخرى توليها النصارى في تنظيمهم الخاص، مثل "قاضي العجمة، وصاحب المدينة أو حارسها، ومستخرج خراج أهل الذمة والأمين الذي كان على رأس كل نقابة من نقابات العمال المختلفة، والعريف الذي تميز بمهارته في حقل من حقول الصناعة".

وفي ظل هذا التسامح تمتع النصارى بكل حقوقهم، ومارسوا شعائرهم بكل حرية، فقد أبقي المسلمون على المؤسسات

بنات تزوجهن ملوك الطوائف".

فشاعت المصاهرات بين أمراء الثغور مثل بني قيس وبني الطويل المولدين وحكام سرقسطة، وبين ملوك إسبانيا النصرانية في مملكة نيرة وقشتالة".

كما أفاضت المصادر بذكر أخبار زواج الأمراء المرابطين بالمسيحيات فقد أورد صاحب الحلل أن يوسف بن تاشفين تزوج بجارية رومية تدعى "فاض الحسن" ونهج أثره علي ابنه فتزوج من "قسر" جارية رومية وشاعت أيضاً ظاهرة التسري بالجواري الروميات حتى أنه كان في قصر إشبيلية رواق يدعى رواق الصبايا كان يستقبل فيه الفتيات اللاتي كان على نصارى الشمال أن يقدموا مائة منهن كل عام إلى بعض ملوك العرب.

### الحياة الإدارية:

أما على الصعيد الإداري فقد حافظ النصارى على نظامهم القديم في تسيير شؤونهم الداخلية والقائم على "نظام القماسة فقد سمح لهم المسلمون أن ينظموا أنفسهم وفق ما تقتضيه شرائعهم" فلهم حق اختيار رئيس منهم يتولى إدارة شؤونهم وهو يدعى بالقومس Gomes

كما ظهر منهم قادة مخزون من أمثال "الروبرتير في العهد المرابطي"، إضافة إلى استعمالهم في جباية الضرائب في "عهد علي بن يوسف". ولنذهب إلى أكثر من هذا فقد حارب بعض النصارى مع المسلمين كمرتزة ووصلوا بذلك إلى مكانة اجتماعية مرموقة فأصبح منهم ذوو الجاه والسلطان والنفوذ إلى جانب ذلك "كانوا يكونون الحرس الخاص لأمير المسلمين علي بن يوسف".

من خلال هذا العرض الموجز تبينت لنا مظاهر التسامح الديني تجاه النصارى، فإلى جانب ما تمتعوا به من حرية واستقلالية في نظمهم وعقائدهم إلا أن ثمة حقيقة تجدر الإشارة إليها إذ أن الحقبة مدار الدراسة ظهر فيها تباين في معاملة أهل الذمة، فبقدر ما نجد التسامح تعلمنا مصادر أخرى عن وجود نوع من القسوة في التعامل مع هؤلاء لاسيما في العصر المرابطي.

ونحن هنا لسنا بصدد دحض الشبهات التي وصم بها أمراء هذا العصر فقد رأينا جوانب مهمة من تسامحهم، وإنما نوعز شدتهم إلى مظاهر الانحلال والتفسخ الأخلاقي الذي نتج عن تلك المخالطة اللاحمدودة.

النصرانية ولم يمسوها بأذى بل ساهموا في حالات أخرى في تشييد كنائس لهم: "ولم نسمع عن كنيسة هدمت أو حوّلت إلى مسجد إلا في حالات نادرة".

وفي هذه الأجواء ارتقى جماعة من النصارى المعاهدين إلى مراكز الدولة، فشغلوا مناصب في الوزارة والسفارة، وحتى في الجباية وكان منهم الشعراء والأطباء والمهندسون والتجار...

"فالمعتضد قرّب إليه شنشد" وضمه إلى مجلسه ثم "رفع مكانته ونظمه بين وزارته وحاشيته واستخدمه في مهام مسيحية خاصة عند فرناندو ملك قشتالة".

كما حظي ابن المذغري الإشبيلي وابن مرتين وهما من شعراء النصارى بمكانة مرموقة في بلاط إشبيلية وعين أبو الربيع النصراني كاتباً لدى باديس بن حبوس في غرناطة.

وشخصية متميزة أخرى تمثلت في "السيد الكومبيطور الذي علا شأنه في بلاط سرقسطة حيث توطدت مكانته واشتد نفوذه عند المؤمن بن هود فكان لا يرم أمراً من أعمال الحرب أو السياسة دون مشاورته".

أعداد كثيرة من المسحيين، وربما كان هذا إجراء عسكريا اقتضته حاجيات الأمن وسلامة الجيوش الغربية في البلاد البعيدة".

وعندما علم الأمير تاشفين بن علي "باستخدام أهل الذمة في بعض الأعمال الخاصة بالجباية شدد على القضاة في مراسلة رسمية بعدم استخدامهم في أي عمل يمس مصلحة من مصالح المسلمين"، وقد خيرهم المرابطون بين "اعتناق الإسلام وبين دفع الجزية، فارتضوا بالخيار الثاني الذي أسهم في تدعيم موارد بيت المال التي كان معظمها يخصص للجهاد".

وعلت أصوات التحذير من التعامل معهم في مجال الكتب التي كانوا يجرفونها وينسبوننها إلى ذويهم، ومنهم من "تعرض للاسترقاق والعبودية وعانى أشكالا من الابتزاز والضغط التي أدت بهم إلى الهروب". ومع كل ذلك تبقى صور التسامح مع النصارى خالدة يشهد بها كل منصف في حق هؤلاء الأمراء والملوك.

ملاحظة: للموضوع هوامش

هذا من جهة ومن جهة أخرى لضرورة أمنية سياسية إذ تيقن الملوك بغدر النصارى وخطورتهم على نظام الدولة، فقد كان أهل الذمة ينتهزون الفرص للإيقاع بالمسلمين، ففي حصار قلمرية سنة 456هـ ساعد النصارى المعاهدون الجيش القشتالي المحاصر وعاونوه بمؤنهم المختزنة وسهلوا عليه المحاصرة والصمود، كما دأب النصارى المعاهدون في طليطلة أيام القادر بن ذي النون على تدمير الدسائس وبث الفتن والاضطرابات داخل المدينة والاتصال بالفرنس السادس وأعوانه "دون أن ننسى ما أقدم عليه النصارى المعاهدون من دعوة ألفونسو ومساندته لأجل القضاء على الحكم الإسلامي بالأندلس".

فحرصا منهم على القيم والأخلاق الإسلامية وحفاظا على كيان الدولة السياسي اضطر الأمير المرابطي أن يتخذ في حقهم إجراءات تارة بالنفي وأخرى بالقتل أو التغريب، إلا أن هذه الإجراءات لم تمنعهم من ممارسة شعائرهم في المنفى بل وصولا إلى حد بناء كنائس خاصة به بعد أن أفتى الفقهاء بذلك.

لقد واجه المرابطون خطر المؤامرات المسيحية بإجراءات عنيفة كان منها "طرده